فرقة «الطُّفار»: راب بقاعي ضد التهميش

زينب خليل

على الصورة، شبان مسلحون في طبيعة جردية. هي صورة غلاف، ألبوم «صُحاب الأرض»، الألبوم الغنائي الأول لفرقة «الطُّفار»، فرقة الراب البقاعية. ربما تتحدث الصورة عن هوية أصحابها. ففي المخيلة اللبنانية، عند ذكر الطُّفار يُستحضر لزامًا الجرد والسلاح حتى تكتمل عناصر تلك الصورة. في السؤال عن سبب وجود السلاح على الغلاف لا يناور مؤسسا الفرقة ولا يتلطيان وراء كلمات ملطّفة، يقولان ما يُقال في واقعهم المعاش «نحنا مش عم نقول إنو الطفار ما بيحملو السلاح والا الشباب كانوا تصورو عالعاصي». السلاح موجود إذا بين يدي الطُّفار ولكن السؤال لماذا؟ واللماذا هذه هي ما دفع الشابين جعفر وناصر الدين إلى تأسيس فرقة الراب من عمق بعلبك ـ الهرمل، تلك البقعة الجغرافية المتهمة بإيواء «الطفار». استعارا التوصيف ـ التهمة لتسمية فرقتهما، فرقة الراب التي يحملانها رسالتهما الاحتجاجية على التهميش والحرمان الواقع على منطقتهما.

«الطُّفار» توصيف يطلق في لبنان على شريحة من الملاحقين من السلطات والخارجين على القانون الذين «طفروا» نحو الجرود في البقاع الشمالي (بعلبك ـ الهرمل). منهم من ارتكب جريمة أو قام بجنحة وفر من وجه العدالة نحو الجرود البقاعية. هكذا ينظر إلى «الطُّفار»، لكنها نظرة لا يعترف بها أهالي المنطقة ولا «الطُّفار» أنفسهم. ثمة قناعة راسخة بأن هؤلاء هم ضحايا دولة «ظالمة» وشديدة المركزية تناست «الأطراف» وناسها حتى دُفعوا نحو الطرق غير القانونية لتأمين معيشتهم.

خرج ناصر الدين وجعفر من تلك البيئة الموسومة بتهمة الخروج على القانون لينقلا ما يعايشانه في حياتهما اليومية ويرويان قصة منطقة مهمشة تُركت لتتدبر مصيرها. لجآ إلى الراب لتحميل الرسالة التي سعيا لإيصالها، لم يأت اختيار الراب كوسيلة تعبير موسيقي عن التهميش من محض صدفة، بل نتج عن وعي سياسي وموسيقي. يعترف الشابان المولودان في منتصف الثمانينيات بابتعادهما منذ الصغر عن الأعمال الموسيقية التجارية ويعبران عن «قرفهما» من سطوتها على الإنتاج الموسيقي بشكل عام:

«يفترض بالموسيقى أن تعبر عن أحوال المجتمع ولكنها في بلادنا صارت للأسف تعبر عن المجتمع التجاري القائم على التعرّي والحشّك بشّك». هذا الوعي لدور الموسيقى في التعبير عن هموم الفرد والمجتمع دفع الشابين للبحث عن «الموسيقى النظيفة» كما يسميانها. بعد إبحار مطول داخل العالم الموسيقي ومتابعة لتجارب موسيقية متنوعة رسا الخيار على الراب RAP لما يمثله من منحى موسيقي اقترن منذ تأسيسه بالتعبير عن معاناة المجتمع الذي خرجت منه الأغنية. و RAP هو اختصار لجملة «Rhythmic African Poetry» وتعني «الشعر الأفريقي المقفى» الذي كان منتشرًا بين أوساط الأميركيين من أصل أفريقي. انطلق الراب في السبعينيات في حي برونكس النيويوريكي للتعبير عن سخط الأميركيين الأفارقة من التمييز العنصري ومن قسوة الحياة ومن ثم سلك طريقه نحو العديد من الدول ومنها لبنان. بدأ الثنائي ناصر الدين وجعفر بكتابة أغاني راب، وبتسجيلها على جهاز الكومبيوتر إلى أن تعرفا إلى عبد الجبار أحد أعضاء فرقة «كتيبة خمسة حتى النصر»، فرقة الراب الفلسطينية الخارجة من رحم معاناة اللاجئين في المخيمات الفلسطينية في لبنان. هذا اللقاء أتاح لهما الاطلاع أكثر على فن الراب وتطوير مهاراتهما بشكل تصاعدي سيسمح لاحقًا للشابين بالذهاب بعيدًا في هذه التجربة حينما سيقرران تأسيس فرقة «الطُّفار». في عيد الموسيقى في صيف العام 2009 أطلت الفرقة لأول مرة على الجمهور معلنة بذلك عن ولادتها كفرقة راب تُعبر عن الحرمان في البقاع وعن معاناة ناسه. في باكورتها ألبوم «صُحاب الأرض» الذي أنتجه الثنائي على حسابهما الخاص ويضم العديد من الأغاني ومنها ما صار معروفًا ورائجًا حتى قبل صدور الالبوم بسبب تناقلها عبر البلوتوث وتحميلها على شبكة الإنترنت كـ «فرصة عمل»، «مدينة الشهدا»، «الوسخ التجاري»، حبر عورق»، «من الشرقي للجرد»، «عالجرودات»، «لكل أم علي» «نشيد الطفار»...

يشتغل الثنائي جيدًا على النصوص بما يسمح لهما بنقل المشاهدات الحية، أما البناء الموسيقي فهو عنصر مكمّل يخدم الكلمة لصالح الفكرة التي يودّان إيصالها بما ينسجم مع أصول الراب. وإذا كان الراب هو الخيار الموسيقي للفرقة فإن الشابين البقاعيين «لوّنا» أغانيهما ببعض أبيات من العتابا، هذا التراث الغنائي الذي تتميز به الثقافة الشعبية البعلبكية، ما أنتج «خلطة» موسيقية محببة بلكنة بعلبكية صافية لاسيما في أغنية «لكل أم علي» حيث تتناول أبيات العتابا الحزينة مناجاة أم لولدها الغائب «أنا تمنيت يا بني معك روح قتلني الدهر بإيد ومعك روح بمشط رصاص لا تنسى معك روح الوالدة الناطرة منك جواب...»

في كل أغنية من هذه الأغاني يطرح جعفر وناصر الدين قضية من القضايا والهموم التي

تسكن البقاع لينقلا بذلك نبض الناس بكل صدق وجرأة تبلغ حد القساوة أحيانًا «يتهمنا البعض بأننا متطرفون في الأغاني أو أننا نبالغ، ولكن عندما يقترب الشخص من منطقتنا سيكتشف أنه يوجد في لبنان ناس يموتون من الجوع ومن البرد. هناك منطقة بكاملها تموت ببطء وهذه ليست مبالغة، هذا نتاج نظام اقتصادي يسيطر على سياسات الحكومات منذ زمن». من البيئة التي يعيشان فيها يلتقط جعفر وناصر الدين مواضيع الأغاني، هما لا يتحدثان عن واقع لم يختبراه بل إن الكلمات لشدة واقعيتها تنساب بشكل عفوي بعيدًا عن التصنع أو الاستعارات الزائفة ما يضفي على الأداء صدقية واضحة، وهو ما يعبر عنه ناصرالدين «من يحضر حفلة لنا سيرى أن أجواءها لا تشبه حفلات الاستعراض أو الرقص أو الكونسرت، نحن ننقل معنا إلى المسرح غضبًا يعيش مع كل الناس». إنه الغضب والاحتجاج على التهميش التاريخي الذي يعاني منه سكان الأطراف في لبنان، والبقاع هنا نموذج، وما ينتجه من مشاكل اجتماعية واقتصادية يضيء عليها الثنائي في تجربتهما الغنائية.

في «فرص عمل»، يتوقف الثنائي عند البطالة التي تضرب جذورها في المجتمع البقاعي نتيجة انعدام فرص العمل وتدهور أوضاع الزراعة في السهل والتي تشكل العمود الفقري لمعيشة البقاعيين. ماذا يبقى أمام ابن بعلبك والقرى المجاورة إلّا هجر أرضه وشد الرحال نحو بيروت وضواحيها. هناك تنتظره أعمال تقع في آخر سلم الترتيب الوظيفي كما تصنفها «العقلية» اللبنانية:

بـ بعلبك ما فرص عمل...زرعلك شقفة أرض بتنكسر

بتنزل على بيروت بتشتغل...تبوس دين العالم لتتسبت بالجيش

أو جرلك عربايا من المنارة عحبيش..شركة أمن..توظف زلم بالمطاعم خدم

لكن العاصمة على تنوعها يبدو أنها لا تفتح ذراعيها بالترحاب لهؤلاء النازحين قسرًا عن قراهم ومدنهم البقاعية، فالتمييز الطبقي والأحكام النمطية المسبقة تلاحق البعلبكي كظله كما ترى فرقة «الطفار»:

حرموك جوعوك يابن عمي صوروك مجرم سراق مش من مستوى بيروت.....

صنفوك شوفير فان يما مهرب للمازوت قعدوك بلا شغل ليشتغلوفيك.....

أما في «من الشرقي للجرد» (تُلقظ الجورد)، فيقدم ناصر الدين وجعفر مشهدية رائعة ليوميات «الحصادين» من قرى شرقي بعلبك إلى جرود الهرمل الذين يحتفلون بمواسمهم الزراعية في «السهل الممتنع» على وقع الزغاريد المرافقة لايقاعات الراب. وفي «حبر عورق» يسلط الثنائي الضوء على القوانين التي «تُفصّل» على قياس أصحاب السلطة والنفوذ

والمال ولا تُطبّق إلّا على الفقراء ممّن لا سند لهم. فالسرقات والتجاوزات التي يرتكبها كبار القوم تمر دون محاسبة في حين تسارع السلطات لتلف محاصيل المزروعات الممنوعة وإصدار الأحكام بحق المزارعين الذين تركتهم الدولة من دون أن توفر لهم البديل عن زرع «الحشيشة»:

«نظام من الكفر لما يكون بالنظام في قانون عم يحسبنا تحت الصفر

دولة ترقي جواسيس يطلع مجرم رئيس لما تموت العدالة يحي العهر

وإذا كانت كل أغاني فرقة «الطُّفار» مسكونة بهموم البقاع إلّا أن أغنية «صُحاب الأرض» لاسيما في مقطعها الأخير تحمل معاناة كل فلاح ومزارع سواء من البقاع أو الجنوب أو عكار أو في أي ريف من لبنان. هي قصة المزارع الذي يضْطر لبيع أرضه أو رهنها ليتمكن من تسديد ديونه وتأمين لقمة عيشه في بلد لا يملك أي سياسة اقتصادية تنموية لهذه الشريحة المسحوقة من المواطنين:

حتى تدفع للدّيينة رهين الأرض سحاب القرض

وعكسر الموسم اللي بعدو بيبقى كم دنم بالعرض

والعمر عم ياخد حقو أيد اللي بتزرع كسرها

الحجة اللي بتسند أخدها

وفوق الموتة عصّة قبر

إبنك من بعد ما تخرج علماتو ما بيفيدوه

بدو وسايط يتوظف خادم لخادم ما قبلتو بزمانو شو مسّح جوخ

كلو هين يبن عمي بس ما تتحول شيطان اخرس

ساكت عن الحق ناطق رسمي باسم الرب

تسكت لما يقول سكوت

تقعد لما يقول قعود

ترهن الأرض اللي بعدا وما يبقالك فيها قبر

وتبلغ الصرخة الاحتجاجية ذروتها في أغنية الوسخ التجاري، المقصود بها «الوسط التجاري» لمدينة بيروت. فيها يصب الثنائي غضبهما المتراكم من الحرمان والتهميش والفقر

على مشروع سوليدير وما تمثله من عنوان للإنماء غير المتوازن «يابن عمّي من الهرمل عا بيروت ضوّي سوليدير وعتّم عالناس بيوت». هي ليست فقط «عتمة» كهرباء بل هي «عتمة» اقتصادية واجتماعية تصيب الأطراف لصالح المركز بوجهه الخدماتي والسياحي، وما مشروع سوليدير، بنظر «الطُّفار» إلَّا صورة فاضحة عن تسخير كل إمكانات الدولة لقطاع الخدمات والسياحة وتعمد القضاء على القطاعات الإنتاجية الأخرى وعلى رأسها الزراعة المصدر الأول لرزق البقاعيين. هذا المشروع الملتبس الذي يرى فيه بعض اللبنانيين بطاقة سياحية جذابة، يصفه آخرون بأنه «أكبر عملية سرقة في تاريخ لبنان الحديث»، أما فرقة «الطُّفار» فقد ذهبت أبعد من ذلك بكثير حينما لم تترك اتهامًا إلَّا وساقته ضد سوليدير، ليس أقله ارتهانها لرؤوس الأموال الخليجية والأجنبية «الشركة عم تتوسع تحقق بالأرباح بتأجر بتبيع بتحالف مع خليجي بتتحوّل عالمية برعاية أميركان». أو القول باحتلالها لأملاك الناس والقضاء على النسيج الاجتماعي والاقتصادي الذي كان قائمًا في وسط البلد قبل أن يتحول إلى وسط «تجاري» طمس الذاكرة الجماعية للمدينة:

مالليي احتلّوا القدس نفسن هنّي احتلّوا البلد

شركاتن بالمطاعم باللي لبّس قبّة جامع من كتر كفروا دهب

عمّر بار الحيط الحيط محلّ صرامي بدل البيت

بعد احتلال البلد بلّط نصّ البحر

النورماندي من عنّا لقبرص صارت جسر

هذه الكلمات التي يكتبها جعفر وناصر الدين، تبدو وفيّة لروح الراب القائم على النص الصريح والصادم والواضح من دون مهادنة. فـ«الطُّفار» لا تهادن في طرحها لقضايا الحرمان والتهميش التي تتحدث عنها في أغانيها بل هي تسعى إلى تصوير الواقع بكل قساوته. لكنها واقعية تتجاوز توصيف ما هو قائم وتذهب إلى مواقف تبدو متطرفة شكلًا ومضمونًا. في نصوص الثنائي دعوات إلى تبني سلوك عنفي في مواجهة السلطات العسكرية والقضائية: «المحاضر لا تدفعون خزؤن.. إن وقفوك وقفون.. نبشوك فجرون.. ويلي بيشد على إيدك إيدو اقطشها.. كلبشوك دبحون»، فالبقاع بنظر «الطُّفار» لا يعرف من الدولة إلَّا شكلها الأمني من خلال الملاحقات والتوقيفات والأحكام القضائية. أما المشاريع التنموية فهي غائبة وذلك ما يدفع السكان إلى سلوك «طرق ملتوية لتأمين العيش بدل الموت من الجوع»، كاللجوء إلى زراعة «الحشيشة» التي منعتها الدولة اللبنانية من دون أن توجد البديل، فصار المزارع يدخل في مواجهة مع القوى الأمنية في كل مرة تأتي لتلف المحاصيل كما يصف لنا الثنائي:

الشغيلة محتفلين استراحة مزارع بعد كبسات الجيش

وغدر بدلات الرسمية لما تقرر تتسلبط على السهل

تتلفلك كل الموسم كانو طالع بعل

معود توقف بوجون يا قاتل يا مقتول

تحمي الشتلة المزروعة فوق صاروخ بعيد المدى المدفون بالتراب...

هنا لا يُعبّر الثنائي فقط عن مزاج جماعي عام يرى في المزروعات الممنوعة خلاصًا في ظل انسداد الأفق الاقتصادي، بل إنه يتماهى معه لدرجة تصوير أن كل ما يصدر عنه من مواقف هي ردات فعل مشروعة إن لم نقل بطولية. لا يكتفي جعفر وناصر الدين بالالتزام بقضية الحرمان والتهميش اللاحقين بالبقاع وأهله وهو ظلم خبراه جيدًا، إلا أن الثنائي يبرران السلوكيات الخارجة عن القانون العام طالما أنه قانون «استنسابي» و«غير عادل»، ويحثان عليها فـ «بغير قانون الطُّفار ما بمشي» كما يرددان في أغنية «حبر عورق». وهنا من البديهي القول إن ليس كل «الطافرين» هم ضحية ظلم بل إن بعضهم قد ارتكب جرائم قد طالت شرورها سكان منطقتهم وأبناء عشيرتهم قبل الآخرين.

هذه الانزلاقات في الأفكار المغناة لا تُطيح بتجربة الفرقة ولا تُخرجها عن مسارها الاحتجاجي على التهميش، خاصة أن الثنائي قد نجح في نقل الصوت إلى خارج البقاع والإضاءة على الواقع بما فيه من معاناة. اليوم باتت أغنيات الفرقة معروفة لدى الأوساط الشبابية المهتمة بهذا النوع من الفن، ما سمح لها بإقامة العديد من الحفلات على مسارح العاصمة. ليس هناك من شركة إنتاج تقف خلف جعفر وناصر الدين، فالثنائي الذي يرفض الخضوع لشروط شركات الإنتاج يقوم بنفسه بتسجيل الأغنيات ونسخها على أقراص مدمجة ومن ثم توزيعها على البيوت في القرى البقاعية. لا تسلك أغاني الطُّفار قنوات التوزيع الكلاسيكية ولا تُبث على وسائل الإعلام التقليدية، لذلك يلجأ الثنائي إلى الشبكة الإلكترونية لتحميل ونقل أغانيهما لاسيما عبر اليوتيوب، أما على الموقع الاجتماعي الفايسبوك فللفرقة حسابان تستخدمهما للتواصل مع محبي «الراب البعلبكي» ولتحميل الأغنيات. يعترف جعفر وناصر الدين بأن تقنيات الاتصال الحديثة وتحديدًا الإنترنت قد أسهمت بشكل كبير في نشر أعمالهما خاصة خارج البقاع من دون تكبد تكاليف مادية. بينما يختلف الوضع في القرى البقاعية النائية حيث يقل عدد مستخدمي الشبكة الإلكترونية ما يدفع الشابين إلى القيام بجولات إلى تلك القرى «عم نحرص نوصّل الألبوم عالضيع حوالينا بيت بيت». يظهر الثنائي رضى عن تجربة «الطُّفار» التي نجحت في إيصال الرسالة، ما يعني أن الجهد الفردي الذي بذلناه لم يذهب

هباء كما يقولان «لو أن الموضوع لا يستأهل أن نضع فيه كل جهدنا لما استمرينا، خاصة أننا نخسر من الناحية التجارية وإذا أقمنا حفلة فمن أجل أن نسد جزءًا من المصاريف التي ندفعها على التسجيل ونسخ الأقراص وطباعة الغلاف. نعتقد أن هذا أكبر من إنجاز أن يصبح صوتنا مسموعًا واسمنا معروفًا لدى المهتمين بهذا الفن من دون أن يكون وراءنا لا شركة إنتاج ولا راديو ولا من يوزّع».

«الطفّار» هم كل المحرومين والفقراء والمقاومين والفلاحين بكل الأرض يقول الثنائي، بينما «الطُّفار» الذين يغنون الراب فهم جعفر وناصر دين. ليس من الضروري أن يولد الإنسان في جو طَفَر ليطفر. فجعفر يدرس الحقوق وناصر الدين يحمل جدارة بالعلوم الاقتصادية بالجامعة اللبنانية نفسها. «حقيقة إن هؤلاء هم الطفار احفظوا هذه الكلمة جيدًا»، تقول الأغنية.